

الكتاب ودوره في حركة التعليم بالأندلس بين عصري الإمارة وملوك الطوائف [138 - 479 هـ / 756 - 1086 م]

بن حاج ميلود
قسم العلوم الإنسانية
جامعة زيان عاشور - الجلفة

• تمهيد :

تعدّ تعريف الكتاب في قاموس اللغة العربية ' ومن ذاك أن الكتاب جمعه كُتِبَ أو كُتِبَ ' وَكُتِبَ الشَّيْءُ يَكْتُبُهُ كُتْبًا وَكِتَابًا وَكِتَابَةً ' أي بمعنى خَطِّه ' والكتاب أيضًا اسم لما كُتِبَ مجموعًا ' ويقال كذلك كُتِبَ الرجل وأكْتُبُهُ أَكْتُابًا أي علمه ' ومنه جاء لفظ المَكْتُبُ أي المَعْلَم الذي يُعَلِّم الكتابة ' والمَكْتُبُ هو الموضع والمكان الذي يتخذهُ المعلم للتعليم ' والجمع الكتاتيب أو المكاتب ' كما أن لفظ الكُتَابُ بمعنى الصبيان أي تلاميذ الكتاتيب ' ويطلق كذلك كجمع من لهم حرفة الكتابة ¹.

أما اصطلاحاً فالكتاب يمثل خلاصة الإنتاج الفكري الإنساني لمؤلف ما في ميدان معين ' وقد يعالج في مؤلفه أكثر من تخصص ' وقد يشترك في التأليف مع آخر أو أكثر كما هو الحال في الموسوعات ' ويعد الكتاب وسيلة من وسائل التواصل والاتصال المعرفي وقيمة مادية ومعنوية هامة للمؤلف والقارئ على حد سواء إذ هو إنتاج المؤلف في عصره ' لهذا تختلف قيمته حسب فائدته العلمية وأهميته محتواه سواء للمتعلم أو المثقف أو العالم أو القارئ بصفة عامة .

وانطلاقاً من مكانة الكتاب في حلقات العلم كأهم الموارد والوسائل الأساسية لتحصيل العلم والمعرفة على الإطلاق ' ولا مناص من وصفه بأنه أحد أهم أدوات التدريس والتعليم بالنسبة للمربي والمعلم وهو يعبر في مرحلة من مراحل إنتاجه كخلاصة ونماذج الإلهام والإسماع ' وتكمن أهمية الكتاب أساساً في مدى استفادة العالم والمتعلم في أبحاثهم ودراساتهم .

1- حركة التأليف في الأندلس وأغراضها :

ولقد اهتم الأندلسيون بالكتاب والمؤلفات بصفة عامة مثلهم مثل الأمم الأخرى ' وحرص هؤلاء على تزويد مكتباتهم بكل ما يقع بين أيديهم من كتب ' وتنوعت وتعددت موارد الكتب الأندلسية وكيفية انتقاءها وانتشارها ويمكن إجمال أهم هذه الأساليب في طريقتين اثنتين :

1- ابن منظور الإفريقي (جمال الدين محمد بن مكرم) ' لسان العرب ' دار صادر ' بيروت ' ج 42 ' ص 3816 - 3817 .

- الأولى: وهي جلب الكتب من المشرق عن طريق الرحلة الحجية ' أو عن طريق العلماء أو التجار¹.

- الثانية: تتمثل في حركة التأليف التي عرفتها الأندلس ' والتي بلغت ذروتها في عصر ملوك الطوائف .

ويضاف إلى ما سبق: حركة الترجمة واشتهرت في هذا الميدان الحضرة طليطلة و التي كانت بمثابة جسر الحضارة الإنسانية بين الأندلس ودول أوروبا وقد استمر إشعاعها زهاء قرنين².

وفيما يخص الطريقة الأولى التي تعني الرحلة ودورها في جلب كتب المشرق ' وأثرها في الحركة التعليمية بصفة عامة فستفرد في مبحث لاحق من هذه الدراسة ' وسيولى التركيز في هذا الموضوع للطريقة الثانية .

لقد اعتنى الأندلسيون بتأليف الكتب ' وجمعها ' ونسخها ' وتجليدها ' وكذا تجارتها بيعاً و شراء وبالأندلس تكاثرت المكتبات حتى ذاع صيتها ' ومنها مكتبة الحكم المستنصر بالأندلس التي اشتهرت بأنها من أهم خزائن الكتب في العالم الإسلامي كخزانة بيت الحكمة ببغداد ' وخزانة جامع الزيتونة بتونس ' وخزانة جامع القرويين بفاس واشتهر أهل قرطبة أكثر من غيرهم من الحواضر الأخرى بحبهم في اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات بالأندلس³ وبلغت الدرجة بهم أن أصبح في كل حي بقرطبة دار للكتب تحتوي على المئات الآلاف من الكتب التي جعلوها في متناول الجميع⁴.

ولم يقتصر الشغف بجمع الكتب لدى العلماء والطلبة فقط ' بل بلغ كذلك الأمراء والحكام ' فقد حرص هؤلاء على جلب الكتب من المشرق ' ومنهم مثلاً عبد الرحمن الأوسط (238-206هـ/822 - 854 م) الذي بعث إلى العراق لالتماس الكتب القديمة والنادرة ' وكان من بينها كتاب السندهند⁵ الذي دخلت معه الأرقام الهندية إلى الأندلس والتي انتقلت منها إلى أوروبا⁶ ' ومن الكتب القديمة التي دخلت الأندلس كتاب هورشيش ' الذي يتناول التاريخ ' وكتاب ديسقوريدس الذي يتكلم عن النباتات الطبية ' وهذين الكتابين الأخيرين أهداهما الإمبراطور البيزنطي ارمانوس السابع للخليفة عبد الرحمن الناصر⁷.

1- محمد الأمين بلغيث ' الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين ' أطروحة دكتوراه « قسم التاريخ ' جامعة الجزائر ' الموسم الجامعي: 2002-2003 ' ص ص 157 - 158 . محمد بن زين العابدين رستم ' الكتب المشرقية والأصول النادرة في الأندلس ' دار ابن حزم ' بيروت ' ط1 ' 2009 ' ص 18 وما بعدها .

2- حامد الشافعي دياب ' الكتب والمكتبات في الأندلس ' دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ' القاهرة ' ط1 ' 1998 ' ص 31 . عبد الرحمن علي الحجي ' الكتب و المكتبات في الأندلس ' هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ' المجمع الثقافي ' ط1 ' ص 201 .

3- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 160 . و بعد الفتنة البربرية (399-403هـ/1012-1008م) بيعت كتب الحكم بأرخص الأثمان ' ولقد ذكر شيخ الظاهرية في الأندلس الفقيه ابن حزم عن أحد موالي الحكم المستنصر أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعين فهرسة ' وفي كل فهرسة عشرون ورقة ' ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط ' وكانت تحتوي على ما يقارب أربع مائة ألف مخطوط ' وكانت هذه المكتبة في بادئ الأمر تقتصر على العلماء والدارسين فقط ثم فتحت للجميع في عهد ملوك الطوائف والمرابطين . محمد الأمين بلغيث ' المرجع نفسه ' ص 163 .

4- زيغريد هونكه ' شمس العرب تسطع على الغرب وأثرها على الحضارة العربية في أوروبا ' نقله عن الألمانية: فاروق بيضون ' كمال دسوقي راجعه ووضع حواشيه : مارون عيسى الخوري ' دار الآفاق الجديدة ' بيروت ' ط6 ' 1981 ' ص 500 .

5- هو من أقدم الكتب التي ترجمت من الهندية إلى العربية ' وقد تعلم منه العرب الحساب والأعداد الهندية المعروفة والسندهند معناه باللغة الهندية : الدهر الداهر. ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) ' المغرب في حلي المغرب ' تحقيق: شوقي ضيف ' دار المعارف ج1 ' ط4 ' القاهرة ' 1993 ' ص 45 .

6- سعد بن عبد الله البشري ' الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (422-316هـ/1030-928م) ' معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ' جامعة أم القرى ' مكة المكرمة ' 1997 ' ص 117 .

7- نفسه .

وتشير بعض المصادر بأن الأندلسيين لم يكتفوا بجلب الكتب من المشرق بل كانت لهم المشاركة في التأليف ولقد اشتهر الفقيه العلامة عيسى بن دينار (ت 827/هـ 212م)¹ بتأليفه كتاب البيوع ' وكذلك عبد الله بن حبيب السلمي (ت 852/هـ 238م)² الذي ألف في الفقه والتاريخ وغيرهما من العلوم ' وأبو علي القالي الذي ألف كتاب الأمالي المشهور به³ ' والعلامة الظاهري الفقيه ابن حزم (ت 1063/هـ 456م) الذي تذكر المصادر بأن مؤلفاته بلغت الأربعمائة مجلد⁴ .

ولم يقتصر الاهتمام بالكتب على المسلمين فقط بل شمل كذلك المسيحيين ' إذ قال مطران قرطبة الفارو الذي عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع ميلادي : « إن جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وأدابهم ويقرءون ويطالعون كتب العرب بولع ' ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة »⁵ .

والملاحظ أن الكتب في الأندلس تميزت بنوعين من حيث أسباب التأليف :

فالنوع الأول : هو ما ألف باسم أحد الأمراء أو الخلفاء أو الملوك .

والنوع الثاني : ما ألف بإرادة العلماء أنفسهم .

فأما النوع الأول فنجد الأمثلة عنه كثيرة ' منها مثلاً عندما كلف الحكم المستنصر بالله العالم عبد الله بن محمد بن مغيث (ت 963/هـ 352م)⁶ تأليف كتاب في أشعار الخلفاء الأمويين بالمشرق والأندلس وكان له ذلك ' وألف صاعد بن الحسن بن عيسى المعروف بأبي العلاء للمصور بن أبي عامر كتابين الأول بعنوان الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار سنة 995/هـ 385م ' والثاني تحت عنوان الحواس بن قعطك المذججي مع ابنة عمه غفراء ' وألف الحصري الشاعر للمعتمد بن عباد كتاب المستحسن من الأشعار⁷ .

وأما النوع الثاني فهو ما ذكره ابن بشكوال عن ابن تمام بن غالب (ت 1044/هـ 436م)⁸ الذي ألف كتاباً في

1- أصله من طليطلة وبها توفي ' سكن قرطبة ' قال عنه ابن الفرضي هو أفقه من يحيى بن يحيى الليثي ' لهذا يقال: فقيه الأندلس عيسى بن دينار ' وعالمها عبد الملك بن حبيب ' وعاقلا يحيى بن يحيى . له رحلة إلى المشرق سمع فيها من الامام مالك . ابن الفرضي ' تاريخ علماء الأندلس ' تحقيق: إبراهيم الأبياري ' دارالكتاب المصري ' دارالكتاب اللبناني ' القاهرة ' بيروت ' ط 2 ' ج 2 ' 1989 ' ص 556 - 557 . القاضي عياض ' ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ' وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ' ج 1 ' ص 20 .

2- يكنى: أبا مروان ' كان بالبيرة ' وسكن قرطبة ' له كتاب في تفسير الموطأ ' وكتاب عن طبقات الفقهاء والتابعين ... الخ . المقرئ التلمساني (أحمد بن محمد) ' نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ' تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ' دار الفكر ' بيروت ' ج 1 ' ط 1 ' 1998 ' ص 288 .

3- نفسه ' ج 2 ' ص 239 .

4- نفسه . عبد الواحد المراكشي (محيي الدين أبي محمد بن علي) ' المعجب في تلخيص أخبار المغرب مطبعة بريك ' ليدن 1881 ص 33 .

5- سعد عبد الله البشري ' المرجع السابق ' ص 115 .

6- يكنى بأبي محمد ' يعرف بابن الصغار ' اشتهر بالعلم والأدب . الضبي ' المصدر السابق ' ج 2 ' ص 432-431 . إبراهيم علي العكش ' التربية والتعليم في الأندلس ' دار عمار ' دار الفيحاء ' أربد ' عمان ' ط 1 ' 1986 ' ص 84 - 85 .

7- حامد دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص 75 .

8- أديب ولغوي ' من أهل مرسية ' توفي بالمرية . الحميدي (أبو عبد الله محمد) ' جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ' تحقيق: إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب اللبناني ' القاهرة ' بيروت ' ط 2 ' ج 1 ' 1989 ' ص 283 .

اللغة لم يصنف أحدا مثله في المختصرات ' وعلم الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري ' فأرسل إلى غالب ألف دينار أندلسية على أن يزيد ترجمة له - أي لأبي الجيش - فرد الدنانير له ورفض وقال : « والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ' ولا استجزت الكذب ' فاني لم أجمعه له خاصة ' ولكن لكل طالب عامة »¹.

واتجهت حركة تأليف الكتب في مجالات العلم والمعرفة سواء النقلية منها أو العقلية في طريقها من المؤلف إلى القارئ باتجاهين مختلفين :

الأول : عن طريق التأليف ' وهذا عندما يقوم المؤلف بجمع مادته المعرفية ' ثم يراجعها ويهذبها وينقحها إلى غاية إخراج الصورة النهائية للكتاب .

والثاني : عن طريق الأمالي ' وهو نتاج مجالس الإملاء التي انتشرت في الحواضر الإسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ' إلى درجة الاعتقاد بأن الإملاء كان هو الطريقة الغالبة والسبب في التأليف .

2- دور طبقة الوراقين في نشر الكتاب :

يرجع اهتمام الأندلسيين بالكتب والتنافس عليها إلى توفر العديد من العوامل يمكن إجمال أهمها فيما يلي :

1 - اختراع الورق وانتشاره كمادة أولية وأساسية للكتابة عليه² وهذا الاختراع الذي ساهم في إزالة الصعوبات التي عانى منها المسلمون في صدر الإسلام عند تدوين العلوم بواسطة استخدام الرق والحجارة والعظام والتكاليف الباهظة الثمن في استخدام ورق البردي ' الأمر الذي أدى إلى الاستعانة بالصينيين في مجال صناعة الورق ' والذي عرف انتشاره في الغرب الإسلامي بواسطة التبادل التجاري الذي عرفه الصينيين والأندلسيين عن طريق الحواضر الشرقية الإسلامية في العراق والحجاز ومصر في عهد حكم العباسيين³ .

ولقد اشتهرت في الأندلس مصانع رائدة في صناعة الورق ' حيث كانت شاطبة⁴ مهد هذه الحرفة في الأندلس وعرفت بمصانع للورق الذي يصدر منها إلى باقي المدن الأندلسية وكذلك إلى أوروبا وإلى المشرق⁵ .

2 - ظهور طبقة الوراقين والنساخ ' وانتشارها في الأندلس ' ومعلوم أن حركة تأليف الكتب لا يمكن أن تقوم بدون ذلك الدور الهام الذي قام به فئة من الوراقين والنساخين وما أظهره هؤلاء النساخ من منافسة فيما بينهم لإخراج الكتب في أحسن حلة من نسخ جيد وخط ممتاز وتجليد أنيق ' حتى أصبح الناس يتنافسون لشراء

1- نفسه ' ص 566-565 . ابن بشكوال (أبو القاسم بن خلف) ' الصلة ' تحقيق : إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب اللبناني ' القاهرة ' بيروت ' ج 1 ' ط 1 ' 1989 ' ص 200 - 201 .

2- حامد دياب الشافعي ' المرجع نفسه ' ص 58 .

3- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 155 .

4- مدينة تقع في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة وهي قريبة من جزيرة شقر ' يقال أن أسماها مشتقة من الشطبة وهي السعفة الخضراء الرطبة وهي مدينة يوجد بها مادة القصاب الذي يصنع به الكاغد يضرب به المثل في الحسنة والمنعة (الجودة والقوة) ليس مثله في الأندلس ' بل لا نظير له في المعمورة ' ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس . الشريف الإدريسي (محمد بن عبد العزيز) ' المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ' مطبعة بريك ' ليدن ' 1863 ' ص 196 . الحميري (محمد بن عبد المنعم) ' الروض المعطار في خبر الأقطار ' تحقيق : إحسان عباس ' مكتبة لبنان ' بيروت ' ط 2 ' 1984 ' ص 337 . ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله) ' معجم البلدان ' دار صادر ' بيروت ' م 3 ' 1977 ' ص 309 .

5- الإدريسي نفسه . محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 156 .

أحسنها وعمل الوراق والنسخ يتطلب حضور وتوفر المادة الأساسية لها ' ونعني بذلك الورق ' ثم ظهرت هذه الطبقة في نواحي الأندلس وزيادة على شاطبة ' اشتهرت كذلك شاطبة وبلنسية ' اشبيلية ' غرناطة ' مالقة ' وطليلة التي يوجد بها أجود أنواع الورق والذي يرجع تاريخه إلى عصر ملوك الطوائف¹.

والمقصود بالوراقة هو العناية بنشر الكتب بالمفهوم المعاصر أي الاعتناء بالكتب نسخاً وتصحيحاً وتجليداً² والوراقة هي مهنة محترمة اشتغل بها علماء أجلة وأشهرهم ابن النديم (ت1047/438م)³ صاحب كتاب الفهرست الذي ألفه سنة 377 هـ/987م⁴ وكانت هذه المهنة يشتغل بها من كان خطه واضحاً وأنيق وله القدرة على الترتيب وتنظيم وتزيين الكتاب ' وتجارتها رابحة ' وهذا لإقبال الناس على الكتب الصحيحة والمضبوطة والأنيقة.

3 - حب الأندلسيين للقراءة والكتابة ' إذ كان معظم السكان متعلمون ' لهذا نجد أن الأمية قليلة جداً في هذا المجتمع ' وهذا الاهتمام بالقراءة هو الذي أدى إلى دفع عجلة التأليف ورواج الكتب والمكتبات معاً⁵.

ولقد ظهرت فئتين من الذين يشتغلون بالنسخ :

- الفئة الأولى : وهي التي تشتغل لحسابها الخاص ' تنتشر هذه الفئة في معظم المدن الأندلسية ويمثل هذه الفئة على سبيل المثال لا الحصر مالك بن غانم بن الحسن الرعيني القرطبي (ت917/305م) إذ كان يورق ويعلم⁶.

- الفئة الثانية : وهي التي تقوم بهذه الوظيفة لصالح فئة معينة مقابل أجر معين ' كمف يعملون لحساب الأمير أو الخليفة ' ومثال ذلك النسخ الذين كانوا ينسخون للحكم المستنصر (366-350 هـ/976-961م) ' وكان هؤلاء يستدعون لتنفيذ هذه المهام وقت الحاجة لذلك ' وكان من أشهرهم محمد بن حارث الخشني القيرواني (ت361 هـ/971م) الذي كلفه الحكم المستنصر بخطة الوراق وتركيب الأصباغ والادهان ' وبوفاة الحكم فتح الخشني دكاناً بقرطبة لبيع الورق الرفيع ' وتحضير عقاقير الكتابة واشتهر قبله كذلك بهذه الوظيفة محمد بن يوسف الوراق (ت362 هـ/973م) التي مارسها لدى الحكم المستنصر إذ كان يدون له كتب الجغرافيا عن مسالك وممالك وأخبار مدن المغرب إلى غاية وفاته⁷ ومنهم كذلك النحوي محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي القرطبي (ت358 هـ/968م)⁸ وعباس بن عمرو بن هارون الكناني الوراق (ت379 هـ/989م)⁹ وشهد

1- محمد الأمين بلغيث ' المرجع نفسه ' ص 161.

2- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ' المقدمة ' تحقيق: علي عبد الواحد وافي ' الهيئة المصرية العامة للكتاب ' 2006 ' ج2 ' ص 889.

3- محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق ' يكنى : أبو الفرج ' وهو بخديدي ' كان معتزلياً ' متشيعاً . خير الدين الزركلي ' الأعلام ' دار العلم للملايين ' بيروت ' ج6 ' ط16 ' 2005 ' ص29.

4- محمد ماهر حمادة ' المكتبات في الإسلام ' نشأتها ' وتطورها ' ومصائرهما ' مؤسسة الرسالة ' بيروت ' ط7 ' 1996 ' ص77.

5- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 110 . حامد الشافعي دياب ' المرجع السابق ' ص 31 ' 59.

6- إبراهيم علي العكش ' المرجع السابق ' ص 62.

7- الضبي (أحمد بن حيان) ' بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ' تحقيق : إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب اللبناني ' القاهرة ' بيروت ' ج1 ' ط1 ' 1989 ' ص 182 - 183 . محمد الأمين بلغيث ' المرجع نفسه ' ص 165.

8- أصله من جيان ' كان عالماً باللغة ' فقيهاً ' إماماً ' أدب عند الملوك ' إذ استأدبه الناصر لابنه المغيرة ' ثم اشتغل عند المستنصر بالله في جمع الكتب ونسخها . ابن الفريسي ' المصدر السابق ' ج2 ' ص736.

9- أصله من صقلية ' دخل الأندلس سنة 336 هـ/947م في عهد الحكم المستنصر بالله ' واستقر بها حتى وفاته . نفسه ' ج2 ' ص299.

مجلس القاضي ابن فطيس أبو المطرف (ت 402 هـ / 1012م) ¹ وهو يملئ الحديث على الناس وله ستة وراقين ينسخون له دائماً مقابل رواتب معينة ².

كما كان للمرأة الأندلسية دور في هذه المهنة ' فقد ذكرت بعض المصادر نماذج من اشتغل بها ' إذ ذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشي مثلاً بأنه: « كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يشتغلن بكتابة المصاحف بالخط الكوفي ' هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها » ³ و مثال آخر أورده المقرئ في كتابه نفح الطيب حيث قال أن عائشة بنت أحمد القرطبية (ت 400 هـ / 1009م) : « لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحةً ... ' وكانت حسنة الخط ' تكتب المصاحف ... » ⁴ كما اشتهرت امرأة أخرى تدعى مزنة كاتبة الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ) ⁵ إذ كانت أديبة حسنة الخط وكذلك لبنى كاتبة الحكم المستنصر المشهورة بأنها حاذقة بالكتابة وحسنة الخط ⁶.

ومهما يكن من الأمر فقد يسر ظهور الورق أو الكاغد ' ورواج صناعته ' وكذلك عمليات النسخ والتجليد حركة التأليف في كل بلد من الأندلس انتقلت إليه هذه المادة ⁷.

3- هواة جمع الكتب :

لم يقتصر الشغف باقتناء الكتب على طالبي العلم والعلماء فقط ' بل شمل حتى الفضوليين من محبي وهواة جمع الكتب ' ومن الطبقة الأرستقراطية بمفهومنا المعاصر وهذا لغرض للتباهي فقط إذ يروي المقرئ عن الحضرمي ⁸ الحادثة التي جرت مع هذا الأخير في قرطبة إذ قال : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوف كتبها مدة ' أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ' إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ' ففرحت به أشد الفرح ' فجعلت أزيد في ثمنه ' فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ إلى أن بلغ فوق حده ' فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ' قال: فأرني شخصاً عليه لباس رياسة ' فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه إن كان له غرض في هذا الكتاب تركته لك ' فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ' قال فقال لي : لست بفقيه ' ولا أدري ما فيه ' ولكن أقمت خزانة كتب ' واحتفلت فيها ' لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي موضع يسع هذا الكتاب ' فلما رأيته حسن الخط ' جيد التجليد استحسنته ' ولم أبالك بما أزيد فيه ' والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ' قال الحضرمي : فأخرجني ' وحملني على أن قلت له : نعم لا

1- عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس بن أصبغ بن فطيس ' عاش بين (402-348 هـ / 960 - 1012م) قاضي الجماعة بقرطبة ' عالم بالتفسير والحديث والتراجم ' ولد بقرطبة ' تولى القضاء والمظالم سنة 394 هـ ثم اعتزل سنة 395 هـ ' جاعلاً للكتب كان يكتب علماء المشرق ويكتبونه . ابن بشكوال ' المصدر السابق ج2 ص466.

خير الدين الزركلي ' المرجع السابق ج3 ص 325 .

2- ابن بشكوال ' المصدر نفسه ج2 ص 467 .

3- عبد الواحد المراكشي ' المصدر السابق ص270 . محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ص 165 .

4- المقرئ التلمساني ' المصدر السابق ج 5 و ص 208 .

5- ولد سنة 277 هـ / 890م ' تلقب بالخليفة وأمير المؤمنين بعد ضعف الخلافة العباسية في العراق أيام المقتدر ' وظهور الشيعة بالقيروان . ابن الفرضي ' المصدر السابق ج1 ص 31 . الضبي ' المصدر السابق ج1 ص 39 .

6- إبراهيم علي العكش ' المرجع السابق ص 65 .

7- محمد ماهر حمادة ' المرجع السابق ص 74 .

8- ربما المقصود به هو عبيد الله بن عمرو بن هشام الحضرمي الاشبيلي ' الذي عاش بين سنتي 550-489 هـ / 1096 - 1155م يكنى بأبي مروان ' أديب ' مقرئ من الشعراء ' رحالة ' ولد بقرطبة ' وتصدر للإقراء بمراكش ثم نزل مرسية ' من مؤلفاته : الإفصاح في اختصار المصباح ' قراءة نافعة . خير الدين الزركلي ' المرجع السابق ج4 ص 196 .

الكتاب ودوره في حركة التعليم بالأندلس بين عصر بني الأمارة وملوك الطوائف

يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك يعطي الجوز من لا له أسنان ' وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ' وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه »¹ ومن هذا النص نستنتج عدة فوائد منها:

– أولاً : أنه كان يقام سوقاً خاصاً أو جزء منه لبيع الكتب .

– ثانياً : أن الكتب كانت تباع بطريقة ما يناظر في عصرنا الحالي البيع بالمزاد العلني .

– ثالثاً : ولع الأندلسيين باقتناء الكتب من العامة والخاصة على حد سواء ' مما يدل على المستوى الثقافي الراقى الذي تميز به المجتمع الأندلسي .

ويروي المقري نقلاً عن ابن سعيد المغربي عن أبيه : « أن قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً ' وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ' إذ صارت هذه الظاهرة من سمات التعيين والرياسة ' حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب لكي يقال أن فلان عنده خزانة كتب ' والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ' والكتاب الذي هو بخط فلان عنده وظفر به ... »² .

وفيما يخص دور قرطبة الريادي من زاوية توفر الكتب فيها وانتشارها ' ومدى حب وتعلق أهلها باقتنائها تذكر بعض المصادر تلك القصة الطريفة عن الحوار الذي جرى بين ابن رشد الفيلسوف القرطبي ' وابن زهر الطبيب الأشبيلي حول أي المدينتين أفضل قرطبة أم اشبيلية فقال ابن رشد لابن زهر مقولته الشهيرة انتهى بها الحوار لصالحه وهذه العبارة هي : « ما أدري ما تقول ' غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ' وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية »³ ' إذا من خلال هذا المقطع من الحوار يتبين مدى أهمية الحاضرة العلمية قرطبة ودور أهلها الحضاري في رواج الكتب وانتشارها ليس بقرطبة فقط وإنما في باقي أنحاء الأندلس .

ولم يقتصر دور حلقات بيع الكتب في الأسواق بالجانب التجاري فقط ' بل كانت كذلك مسرحاً للثقافة والحوار العلمي ' ومكاناً لاجتماع العلماء والأدباء ' وهو ما يشبه معارض الكتب في العصر الحالي ' إذ تقام الندوات الفكرية والمحاضرات والأمسيات الشعرية ' وتبقى الإشارة أن تحديد سعر الكتاب في مثل هذه الأسواق يخضع لمجموعة من العوامل أهمها : جودة خط الكتاب ' وشهرة الخطاط ونسبة المخطوط إلى شخص ذا سلطة ومعروف كخليفة أو أمير أو وزير ' وهو ما يسمى بكتاب العظماء ' وكذلك شهرة مؤلف الكتاب⁴ .

أما فيما يتعلق بعدد الكتب التي كانت متوفرة ومنشرة في الأندلس في المجال الزمني لهذه الدراسة ' فإنه من الصعب إحصاؤها أو إعطاء رقم يقيني لها ' وهذا لعدم توفر المعلومات الدقيقة لذلك ' وتبقى الإشارة إلى محاولة المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا بتقديم عدد الكتب التي كانت تنتج وتنتشر في قرطبة لوحدها إذ قال بأنها تراوحت في حدود ما بين الستين والثمانين ألف كتاب سنوياً ' وهذا الرقم هو في الأصل مجرد تخمين فقط لصاحبه بعد إجراءه عملية حسابية راعى فيها عدد الطلبة الذين كانوا يترددون على مجالس العلم للدراسة والإملاء بقرطبة ' وكذلك النساء العاملات في ميدان النسخ والوراقة ' زيادة على المكتبات الخاصة التي تنتج لحسابها الخاص الكتب والمؤلفات⁵ .

1- المقري التلمساني ' المصدر السابق ' ج2 ' ص 8 - 9 .

2- نفسه ' ج2 ' ص 8 .

3- نفسه , ج ١ , ص ١٣٦ .

4- حامد دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص 68 وما بعدها .

5- خوليان ريبيرا ' التربية الإسلامية في الأندلس أصولها الشرقية وتأثيراتها الغربية ' ترجمة: الطاهر أحمد مكي ' دار المعارف ' .

مما سبق فإن ظاهرة اقتناء الأندلسيين للكتب والاهتمام بها تأليفاً ونسخاً وتجليداً وجمعاً وبيعاً وشراءً وقراءةً وإملاءً كان بهدف طلب العلم بالدرجة الأولى أو للتباهي بدرجة أقل لدى بعضهم كما أسلفنا سابقاً وكانت هذه الظاهرة أندلسية بامتياز وكل ما ورد ذكره سابقاً فإن دل على شيء فإنما يدل على مدى الوعي الفكري والراقي الحضاري الذي بلغه المجتمع الأندلسي آنذاك.

المكتبات في الأندلس :

يُعتقد أن وجود المكتبات في المجتمع الإسلامي كان نتاج حاجة المسلمين للتزود بالمعرفة والعلم ومنه فالنهضة العلمية التي عرفها العالم الإسلامي ومنه الأندلس بالأخص هي السبب في اهتمام المسلمين بالكتب والمكتبات إذ يعد الكتاب - في بعض الأدبيات - وعاء المعرفة¹ ولقد ارتبط ظهور المكتبات ونشأتها وتطورها ارتباطاً وثيقاً بالإنتاج الفكري من حيث الكم والنوع هذا الإنتاج الذي يرتبط بدوره ارتباطاً لا يقل شأناً عن سابقه بالحياة العلمية والفكرية في البلاد².

لقد جاء فيما سبق أن الأندلسيين اشتهروا بحبهم وشغفهم بجمع الكتب وما قصة الفقيه الحضرمي الواردة سابقاً خير دليل على ذلك هذا الشغف الذي لم ينحصر على العلماء وطالبي العلم بل شمل العامة كذلك وكانت هذه الهواية كعامل أول في زيادة على رواج صناعة الورق ونسخ الكتب ورواج تجارتها كعامل ثانٍ ساهما في إنشاء وتكوين المكتبات إما للقراءة والاستفادة من ذخائر الكتب أو للتباهي والتفاخر بين الناس كما هو الحال بالنسبة للطبقة الأرستقراطية³.

- أنواع المكتبات :

يصعب على الباحث في موضوع المكتبات تقديم إحصائية دقيقة وافية لعدد المكتبات التي كانت موجودة في الأندلس في فترة محل الدراسة فقد ظهرت بعض الإشارات غير الدقيقة في متون بعض الكتب فدائرة المعارف القرن العشرين مثلاً تذكر أنه كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة وقد بلغ عدد الكتب الموجودة بمكتبة قرطبة لوحدها أربع مائة ألف (400000) مجلد⁴ وكذلك إشارات المؤرخ حامد الشافعي دياب الذي ذكر بأنه كان في قرطبة لوحدها عشرون (20) مكتبة⁵.

وبعيداً عن الأرقام والإحصائيات فالظاهر أن المكتبات في الأندلس تميزت بأشكال وأنواع عدة يمكن إجمال أهمها فيما يلي :

أ) مكتبات المساجد : التي تعد أول نوع ظهر في الإسلام وليس في الأندلس فقط ويضم هذا النوع من المكتبات عادة مجموعة من كتب القرآن الكريم والكتب الدينية وهي التي تُستغل مقتنياتها في حلقات الدرس بالمسجد ومن أشهر مكتبات المساجد في الأندلس : مكتبة جامع قرطبة مكتبة جامع طليطلة التي اشتهرت بالوفرة والتنوع⁶.

القاهرة ط2 ' 1994 ' ص ص 172 - 173 .

1- محمد ماهر حمادة ' المرجع السابق ' ص 27 .

2- حامد الشافعي دياب ' المرجع السابق ' ص 93 .

3- إبراهيم علي العكش ' المرجع السابق ' ص 66 .

4- محمد فريد وجدي ' دائرة معارف القرن العشرين ' دار المعرفة ' بيروت ' ط3 ' م8 ' 1971 ' ص 62. (مادة كتب).

5- حامد دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص 98 .

6- نفسه ' ص ص 100 - 101 .

ب) المكتبات الخاصة : ويقصد بها المكتبات التي أنشأت من طرف أشخاص معينين على نفقتهم الخاصة ولقائدتهم الشخصية ' وتميز بها العلماء بالأخص ' ومن أمثلة الذين أسسوا لمثل هذه المكتبات قاسم بن سعدان (ت347/958م)¹ الذي عرف بحبه اقتناء الكتب ' إذ كان ضابطاً لها ' واشتغل في نسخها ومقابلتها إلى أن توفي² ' واشتهر عبد الله بن محمد الجهني الطليطلي (ت383/993م) الذي كان شديد التحفظ في إعارة الكتب لآخرين إلا إذا تيقن من أمانته³ .

كما كان لبعض البسطاء و ذوي الأجرة الضعيفة مساهمة في الاهتمام بإنشاء مثل هذه المكتبات وكان منهم مثلاً معلم الصبيان حزم (لم نعر على تاريخ وفاته ويرجح أنه عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) ' إذ كان يدخر أجره القليل في معظمه لشراء الكتب ' يشتغل في نسخها إلى درجة أن حسده بعض أدباء قرطبة على روعة ودققة مخطوطاته ' وحصوله على بعض المخطوطات النادرة ' ولقد ورثه ابنه محمد (عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) هذا الشغف والهواية فأصبح بفضلها راوية في الأدب⁴ ' واشتهرت كذلك عائشة بنت أحمد القرطبية (ت400/1009م)⁵ فقد كانت تجمع الكتب ولها خزانة كتب كبيرة⁶ وكذلك الشأن لأبي حفص الزهراوي عمر بن عبيد الله الذهلي (ت454/1062م) الذي نهب البربر ثمانية أحمال من كتبه عندما هم بإخراجها من بيته إلى مكان آخر⁷.

وتجدر الإشارة أن هؤلاء الأعلام لم تكن همتهم تقتصر على جمع الكتب فقط ' بل كان منهم من يعتني بها ويتأكد من محتوياتها ' وإفادتها لمن أراد التزود بالمعرفة والعلم ' إذ كان أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي الطليطلي (ت400/1009م) على سبيل المثال يصحح ما في الكتب من خطأ أو خلل أو نقصان وكانت جلها بخط يده وهي من أصح الكتب بطليطلة ضبطاً وتصحيحاً⁸.

ويمكن أن نضيف لهذا الصنف مجموعة الوراقين والنساخ الذين كانت في بيوتهم ودكاكينهم العدد الكبير من الكتب إما للتجارة ' أو الاستفادة منها علمياً .

ج) مكتبات القصور: يرجع إنشاء مثل هذه المكتبات إلى عصر محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (273-238/852-886م) ' فقد اشتهر الأمويون في الأندلس اهتمامهم بالتعليم ' والتي كانت الكتب إحدى وسائله ' وظهر في عصر هذا الأمير المذكور ما عرفت في الأدبيات التاريخية ما يصطلح به المكتبة الملكية ' والتي وصفت بأنها الأحسن ما في مدينة قرطبة⁹ .

ولقد أظهر الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (350-300/961-912م) بحبه وعنايته للعلم 1- قاسم بن سعدان بن عبد الوارث بن محمد بن يزيد مولى عبد الرحمن بن معاوية من أهل رية ' سكن قرطبة ' يكنى : أبا محمد ' حسن الخط ' جيد الضبط ' عالماً بالحديث ' بصيراً بالنحو ' شاعراً ' اشتغل في نسخ الكتب ومقابلتها إلى أن توفي ' حبس كتبه فكانت موقوفة واستفاد منها الكثير من الطلبة . ابن الفرضي ' المصدر السابق ' ج2 ' ص 614 - 615 .

2- نفسه .

3- ابن بشكوال ' المصدر السابق ' ج1 ' ص 383 وما بعدها .

4- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 165 .

5- وقد ذكر بأنه لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً ' وفهماً ' وأدباً ' وشعراً ' وفصاحةً ' تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم ' وكانت حسنة الخط وتكتب المصاحف . المقري التلمساني ' المصدر السابق ' ج5 ' ص 208 .

6- ابن بشكوال ' المصدر السابق ' ج3 ' ص 992 - 993 .

7- نفسه ' ج2 ' ص 583 . إبراهيم علي العكش ' المرجع السابق ' 69 .

8- ابن بشكوال ' المصدر نفسه ' ج1 ' ص 51 وما بعدها . إبراهيم علي العكش ' المرجع نفسه ص 70 .

9- حامد الشافعي ' المرجع السابق ' ص 108 .

والكتب' وقد بلغ ذلك مسامع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع¹ الذي أهدى له كتاب ديسقوريدس في الطب والنبات' وقد زين برسومات جميلة للنباتات المذكورة في الكتاب².

ولقد أدى اهتمام الخليفة الحكم المستنصر (365-350/975-961م) وشغفه بالكتب إلى الحرص بتزويد مكتبة القصر من الكتب في مختلف العلوم والفنون' واشتهر بحبه للعلم والمشاركة فيه حتى قبل أن يعتلي سدة الحكم' ولقد جلب بواسطة أعيانه أو العلماء أو التجار من المشرق المؤلفات الجليلة والمصنفات النادرة في شتى مجالات العلم والمعرفة' واجتمعت في خزائن كتبه ما لم تجمع لأحد من قبله حتى أن صاعد الأندلسي (ت462/1069م) ذهب إلى حد القول بأنه: «جمع الكتب منذ أبيه ومدة حكمه ما كاد يضاهاها جمعة ملوك بني العباس»³ ولقد قدم المقرئ رقما عن عدد الكتب التي تحتويه مكتبته إذ قدرها بأنها بلغت الأربعمائة ألف مجلد' وأن الأندلسيين لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها⁴.

وإذا قيل مكتبة الحكم فإنه المقصود مكتبة قرطبة وهي الشهرة المذكورة في المصادر' تلك المكتبة التي احتلت المرتبة الأولى في ذلك العصر ليس في الأندلس فقط وإنما على مستوى كل مكتبات العالم الإسلامي من حيث مكانتها وضخامة عدد كتبها ومصنفاتها' وكذلك من حيث تنوعها في مختلف مجالات العلوم والمعرفة والفنون⁵ ويصفها المقرئ مختصراً في ذلك بقوله: «أنه جمع من الكتب - أي الحكم المستنصر - ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاة»⁶ ولقد تكونت مكتبة الحكم وبلغت هذا الشأن بسبب اجتماع ثلاث مكتبات في هذه المكتبة وهذه المكتبات هي⁷:

- مكتبة القصر التي اشتملت على ما جمعه أسلافه من الأمراء وأبيه الخليفة الناصر.
 - مكتبة أخيه عبد الله بن عبد الرحمن (قتله أبوه الخليفة الناصر) التي ورثها بعد مقتله.
 - ومكتبته الخاصة' والتي جمع كتبها من ماله الخاص وجهده.
- وأصبحت مكتبة الحكم مقصداً لطلاب العلم والعلماء على حد سواء' إذ كانت تسهل مطالعة كتبها من خلال تسخير خدمة الفهارس لمرتابيها' فقد بلغ عددها أربعة وأربعين فهرسة' وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها ذكر إلا الدواوين لا غير⁸ وكانت هذه المكتبة مقتصرة على العلماء والدارسين فقط إلى غاية عصر ملوك
- 1- يدعى: بورفيروجينيتوس Porphyrogenitus أي لابس الأرجوان الذي حكم بيزنطا في فترتين (919-914م) و(945-959م). قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس' إدارة الأبراطورية البيزنطية' عرض وتحليل وتعليق: محمود سعيد عمران' دار النهضة العربية' بيروت' 1980' ص 5' 10' 16.
 - 2- وديسقوريدس هو طبيب يوناني عاش في القرن الأول للميلاد. ابن أبي أصيبعة (موقف الدين أحمد بن القاسم)' عيون الأنباء في طبقات الأطباء' شرح وتحقيق: نزار رضا' منشورات دار مكتبة الحياة' بيروت' (د.ت)' ص 26' 494. أنخل جنثالث بالنثيا' تاريخ الفكر الأندلسي' ترجمة: حسين مؤنس' مكتبة الثقافة الدينية' ص 462 - 463. وينسب ابن أبي أصيبعة أن هذه الهدية كانت من الإمبراطور رومانوس القيصر الذي حكم بيزنطا بين 944-920م وليس من قسطنطين السابع. نفسه' ص 493.
 - 3- صاعد الأندلسي (أبو القاسم بن أحمد)' طبقات الأمم' نشر وتحقيق: لويس شيخو' المطبعة الكاثوليكية' بيروت' 1912' ص 66.
 - 4- المقرئ التلمساني' المصدر السابق' ج1' ص 307.
 - 5- حامد الشافعي دياب' المرجع السابق' ص 108.
 - 6- المقرئ التلمساني' نفسه.
 - 7- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)' الحلة السيرة' وضع حواشيه وعلق عليه: علي إبراهيم محمود' دار الكتب العلمية' بيروت' ط1' 2008' ص 117' 120. حامد الشافعي دياب' المرجع نفسه' ص 111.
 - 8- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)' جمهرة أنساب العرب' تحقيق: عبد السلام محمد هارون' دار المعارف

الطوائف ' حيث أصبحت بعد ذلك مفتوحة للجميع¹.

واشتهرت في مثل هذا النوع من المكتبات في عصر ملوك الطوائف مكتبة المظفر بن الأفطس صاحب مملكة بطليوس (453-436/1045-1062م) المعروف بحبه لأهل العلم وتوقيره لهم ويعد هو في حد ذاته من علماء عصره ' وله شغف شديد بجمع كتب العلم ' وبلغ أن الأعداد الضخمة من الكتب والمجلدات التي كانت تحتويها مكتبته اجتمع أهل قرطبة في جمعها ونقلها مدة عام كامل² وعرف عن مجاهد العامري حاكم مملكة دانية (436-412/1044-1021م) حبه في جمع الكتب ' حيث كانت له خزائن جمة من الكتب³.

والملاحظ أن هذه المكتبات ' وعلى الرغم من أنها أسست بحساب المجهود الشخصي للأفراد أو الخلفاء و الحكام ' إلا أنها كانت مفتوحة لجميع القراء والمهتمين بالدراسة والمطالعة والتثقيف⁴.

د) المكتبات العامة : تميز هذا النوع بالكثرة ' الأمر الذي ساهم في ازدهار الحركة الفكرية في الأندلس⁵ ' وقد قام من خلال تمويل السلطة ' لكنه لا يرقى من حيث الرصيد ونوعية الكتب التي يحتويها إلى مصاف الكتب الخاصة لشحه من الكتب النفيسة التي تتطلب رصد أموال ضخمة لاقتنائها⁶.

وتتألف المكتبات الأندلسية من مجموعة أقسام رئيسية وهي المسئولة عن كيفية إعداد الكتب ' وإنتاجها وترتيبها وتنظيمها ' ويمكن ذكر أهم هذه الأقسام فيما يلي:

د-1) قسم للتأليف : كالذي كان موجوداً في مكتبة الحكم المستنصر ' والتي لم تكن مجرد مكتبة للإطلاع بل بمثابة مركزاً للبحث والدراسات والتأليف والترجمة بمفهومنا المعاصر ' وفي هذا القسم يتم تكليف علماء معنيون بتأليف الكتب في تخصصات معينة ' ومثال ذلك عندما كلف الفقيه محمد بن الحارث الخشني (ت361هـ/971م) بتأليف كتب ' فألف كتاب تاريخ قضاة الأندلس الذي ارتبط هذا العنوان باسمه ' وكان هذا التكليف بأمر من الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر وهذا بهدف دعم المذهب المالكي - المذهب الرسمي المعتمد - في الأندلس ضد دعاة المذهب الشيعي الإسماعيلي من الفاطميين الذين حاولوا نشره في الأندلس⁸.

د-2) قسم الترجمة: الذي اهتم بترجمة أهم الكتب من اللغات الأجنبية كاللغتين اليونانية واللاتينية والهندية إلى اللغة العربية خاصة في مجالات معينة كالطب والهندسة والفلك ' ومن اشتغل في هذا الميدان محمد بن سعيد الوراق

القاهرة ط5 1982 ' ص100. ابن الأبار ' المصدر نفسه ' ص118.

1- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص158.

2- ابن سعيد ' المصدر السابق ' ج1 ' ص123 ' 377.

3- ابن بسام الشنتريني ' الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ' تحقيق : إحسان عباس ' دار الثقافة ' بيروت ' ' ق3 ' 1997 ' ص23.

4- حامد دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص103.

5- نفسه ' ص104.

6- خميسي بولعراس ' الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف (400 - 479 هـ/1009-1086م) «مذكرة ماجستير» ' قسم التاريخ ' جامعة الحاج لخضر ' باتنة ' الموسم الجامعي : 2006-2007 ' ص141.

7- يكنى : أبو عبد الله ' فقيه ' شاعر ' وله معرفة بالكيمياء ' تفقه بالقيروان ' وسكن بقرطبة ' أولاه المستنصر المواريث ببجاجة ' ثم الشورى بقرطبة ' له العديد من المؤلفات منها : الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك ' التحاصر والمغلالة الفتيا ' تاريخ علماء الأندلس وتاريخ قضاة الأندلس. القاضي عياض ' المصدر السابق ' ص531 - 532.

8- حامد دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص118.

(ت 361هـ أو 362هـ/971م أو 972م)¹ ' وغيره .

د - 3) قسم التدقيق و مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها : ويقوم بهذه المهمة علماء أجلة منهم مثلاً محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي (ت 358هـ/968م)² ' وغيره .

د - 4) قسم النسخ : و يتمثل دوره في رواج الكتب وتوفرها ' إذ كان بمثابة عملية النشر في عصرنا المعاصر وكانت في مكتبة الحكم المستنصر مثلاً قسماً خاصاً بهذه الوظيفة فكان فيها جيشاً من النساخ المتخصصين والمتمرسين الذين يجيدون النسخ ' ويتميزون بجودة الخط وأمانتهم في النقل كل حسب تخصصه فضلاً عن مهارتهم في فن التجليد والزخرفة لإخراج الكتب في أحسن حال³ .

د - 5) قسم الإعداد الفني للكتاب: من خلال وضع الفهارس ' وتصنيفها لتسهيل تناولها وتداولها بين القراء ونبقى على مثال مكتبة الحكم المستنصر والتي كانت فيها فهارس عناوين الكتب والدواوين تضم ما يعادل أو يزيد عن أربعة وأربعين فهرساً وفي كل فهرس عشرون ورقة حسب رواية المقرئ ' وقيل بلغت الخمسون ورقة في رواية ابن حزم⁴ .

وقد كان لابن النديم (ت 377هـ/987م) صاحب الفهرست الفضل في وضع خطة لترتيب وتنظيم الكتب على الشكل ما هو معروف بالفهرسة الوصفية التي تتضمن معلومات حول موضوع الكتاب وصاحبه ' وقسم ابن النديم فهارس المكتبات إلى عشرة أقسام سماها المقالات وهي : القرآن - النحو - التاريخ - الشعر - العقائد - الفقه - الفلسفة - السمر - الأديان - علم الصنعة ' وربما هذا التقسيم هو المعمول به في المكتبات الأندلسية الكبرى كمكتبة الخليفة الحكم المستنصر⁵ .

وتجدر الإشارة أن هذه الأقسام لا توجد في كل المكتبات الأندلسية إلا المكتبات الكبرى كمكتبة الحكم المستنصر بالله مثلاً ' وربما تكتفي بعض المكتبات بقسمين أو ثلاثة على الأكثر ' كالإكتفاء بتوفير قسم خاص بالاطلاع ' وآخر خاص بالإعداد الفني ووضع الكتب على الرفوف ' وثالث للتأليف والنسخ والترجمة وما يتعلق بذلك⁶ .

ولقد تعددت أهداف إنشاء المكتبات والغرض منها ' إما لأهداف تربوية وتعليمية وهو الذي يهتم بالأساس موضوع هذا البحث ' إذ كانت المكتبات ولا تزال تمثل كمرکز للتربية والتعليم من خلال مساعدة المتعلم والمعلم في تدعيم المناهج التعليمية بالدروس والمواضيع ذات الصلة في شتى مجالات العلم والتخصصات ' زيادة على أهداف دينية واجتماعية ومعرفية وتنقيفية وحضارية⁷ .

وفيما يخص نظام الإعارة وكيفية الاستفادة من الكتب ' فقد كان ارتياد معظم هذه المكتبات للاطلاع

1- من أهل استجة ' سكن قرطبة ' كان معنياً بالكتب ' متصرفاً بالآداب . ابن الفريسي ' المصدر السابق ' ج 2 ' ص 742 .
2- إماماً ' فقيهاً ' يُعرف بالرباعي ' من أهل قرطبة وأصله من جيان ' سمع بقرطبة ' درّس الناس الإعراب ' وأدب عند الملوك ' واستأدبه الخليفة الناصر لابنه المغيرة ' ثم صار في خدمة المستنصر في مقابلة الكتب . ابن الفريسي ' المصدر نفسه ' ج 2 ' ص 736 .

3- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 156 ' 173 . حامد الشافعي دياب ' المرجع السابق ' ص 120 .

4- ابن حزم ' المصدر السابق ' 100 . المقرئ التلمساني ' المصدر السابق ' ج 1 ' ص 300 .

5- حامد الشافعي دياب ' المرجع السابق ' ص 126 .

6- نفسه ' ص 117 .

7- نفسه ' ص 127 وما بعدها .

الداخلي متاحاً للجميع ما عدا مكتبة الحكم التي كانت مقتصرة على النخبة في عصر الخلافة ثم فتحت للجميع في عصر ملوك الطوائف وما بعده⁸ وكانت الإعارة الخارجية جد صعبة تتأرجح بين المنع والإباحة وهذا حسب قيمة الكتاب وندرته وحسب مكانة المستعير العلمية والاجتماعية خوفاً من الضياع⁹ وفي بعض المكتبات لا يسمح بإعارة الكتب خارجياً إلا الأشخاص الموثوق فيهم من العلماء وعلية القوم⁹.

وشاع نظام الإعارة فيما بين المكتبات في إطار ما يصطلح عليه الإعارة الداخلية بين المكتبات وكذلك الشأن بين العلماء¹⁰ إذ جرت العادة أن يستعير هؤلاء من بعضهم البعض الكتب خاصة منها المصادر النفيسة¹⁰.

ومما سبق ذكره في جزئية الكتب والمكتبات وأثرهما في الحركة التعليمية والعلمية والفكرية بصفة عامة فإن الهدف منها هو بيان مدى المكانة التي وصل إليها المجتمع الأندلسي من رقي حضاري آنذاك حيث كثر عدد المتعلمين والعلماء والفقهاء والأدباء مما انعكس إيجاباً في حياة الأندلسيين العلمية وحتى العملية وبهذا الحال صارت الأندلس أحد الجسور الثلاث التي اشتهرت بنقل الحضارة الإنسانية الإسلامية من بلاد الإسلام إلى أوروبا بعد القسطنطينية وصقلية وهذا بفضل عناية واهتمام أهل الأندلس بالكتاب والمكتبات ذلك الموروث المادي الثقافي النفيس.

*محنة بعض المكتبات:

وُصف المجتمع الأندلسي بأنه محب للعلم وقراءة المؤلفات وشغفه بجمع الكتب وتأسيس وتدشين المكتبات لا سيما أن هذه الظاهرة شملت معظم فئات المجتمع وكذا طبقاته الفقيرة والغنية العامة والعلماء إلا أنه من المؤسف في نفس الوقت أن بعض المكتبات الأندلسية تعرضت إلى بعض المحن منها التلف أو الإحراق أو السلب والنهب ومرد ذلك إلى بعض الظروف القاهرة التي مرت بها الأندلس إما فتن سياسية أو جوائح طبيعية أو غيرهما وفيما يلي سيأتي الحديث عن بعض الأحداث التي أدت إلى إتلاف العديد من المكتبات بأكملها أو جزء منها.

وتجدر الإشارة قبل عرض بعض الأمثلة عن حالات إحراق الكتب في بعض المراحل التي عاشتها الأندلس يجب أن نخرج إلى بعض ما كتبه المؤرخون حول هذه الظاهرة ومنهم بالأخص المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا الذي ربط العلاقة بين ظاهرة إحراق الكتب مع انتشار المذهب المالكي وهذا بغرض صد انتشار المذاهب الفقهية الأخرى وحجته في ذلك أن الكتاب لم يحمل أي خطر يذكر في بداية الفتوحات الإسلامية للأندلس إذ كان التركيز على فتح الثغور ونشر وتعليم اللغة العربية بشكل واسع لكن بعد الاستقرار وبناء الدولة الأموية وبروز مكانة الفقهاء وتأثيرهم في رجال السياسة والسلطة وتآليبهم ضد المذاهب الفقهية الأخرى وكذلك وقوفهم ضد انتشار كتب الفلسفة والفلك والتنجيم والتي رأوا أنها تتعارض مع المعتقد الإسلامي السني فأشاروا إلى الأمراء والخلفاء بضرورة إحراق الكتب ذات هذا التوجه¹¹.

لكن في المقابل يوضح المستشرق نفسه - وهو في تناقض صريح - أن الكثير من الحكام ومنهم الأمويين وبالأخص الخليفة الحكم المستنصر قد ضرب مثلاً يحتذى به من الحرية والتسامح لمشايخ بعض المذاهب غير المالكية وكذا الفلاسفة وفتح المجال لحرية الفكر والتأليف في عهده بل وفر لهؤلاء جانب كبير من

8- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 158. خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 127.

9- حامد الشافعي دياب ' المرجع السابق ' ص 132.

10- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 165.

11- نفسه ' ص 198.

الحماية¹ فصارت هذه الفترة من أزهى المراحل التي عاشتها الأندلس في ازدهار الحركة العلمية والفكرية .

1 - إتحاف المنصور بن أبي عامر (ت392هـ/1002م)² جزء من مكتبة الحكم المستنصر(ت366هـ/976م):

رغم ما عرف به الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر في حبه للعلم ومطالعة الكتب اقتداء بالخليفة الحكم المستنصر ' وكذلك تشجيعه للعلماء ' إلا أن المؤرخين لم يتغاضوا عن حدث مؤسف عرفته الأندلس أثناء حكمه ألا وهو حادثة إتحاف جزء من مكتبة الحكم المستنصر بأمر منه تحت ضغط الفقهاء ' وذلك بداعي منهم تطهير المكتبة من كتب الزندقة والمؤلفات التي تضر بالفكر والمعتقد السني المالكي السائد لدى معظم المجتمع الأندلسي ' فقد رأى هؤلاء الفقهاء أنه من غير المناسب أن يقع بعض من تلك المؤلفات في أيدي من لا يفقهون مقاصدها ' فأخرجت تلك المصنفات إلى ساحة القصر أشعلت النيران فيها ' وكان المنصور في حد ذاته يحمل الكتب بيده ويرميها إلى السنة النيران ' ولم يشفع أن صاحب هذه الكتب هو والد الخليفة الشرعي الذي يحكم المنصور باسمه وهو هشام المؤيد (399-436هـ/1008-976م و403-440هـ/1013-1009م) ' وبالتالي فقد أحرقت كتب الفلسفة والفلك والمنطق وكل العلوم التي ترجع إلى الإغريق ' وأستثنى من عملية الحرق هذه كتب الفقه والحساب والطب ' وكل ما هو بعيد عن الشبهات³.

وكان هدف الحاجب ابن أبي عامر من هذا التصرف هو التقرب إلى عامة الناس وكسب ود الفقهاء وإرضاءهم بهدف تأييدهم له⁴ ' رغم أن المنصور - ربما - لم يكن مقتنعا بحرق هذه الكتب ' إذ كان هو في حد ذاته يهوى كتب الفلسفة وجماعا لها ' وتتناول بعض هذه الكتب مواضيع لا يقبلها الفقهاء ويرون مضامينها محل شبهات ' ولقد برر كل من المؤرخ المقرئ التلمساني والمؤرخ عبد البديع الخولي والمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا أن إقدامه على تنصيب ما يشبه بمحكمة تفتيش دافعه سياسي بحت كحاكم فعلي للدولة الأموية من أجل إدخال البهجة والإعجاب في نفوس العامة ' وكذلك شراء ذمم الفقهاء لتحقيق مكاسب سياسية لصالحه⁵ ويضيف خوليان ريبيرا أن الغيرة لدى هؤلاء الفقهاء من نظرائهم من العلماء في التخصصات المذكورة سافا هو السبب في تأليب المنصور لإحراق هذه الكتب⁶.

2 - الفتنة البربرية بقرطبة 399-403هـ/1012-1008م وإحراق الكتب :

بعد السقوط غير المباشر للحكم الأموي في الأندلس إثر هجوم البربر على العاصمة قرطبة وهو ما عرف اصطلاحا في الأدبيات التاريخية بالفتنة البربرية بين سنتي 403-399هـ/1008-1012 م⁷ وعمت الفوضى

- 1- نفسه .
- 2- هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر الحاجب المنصور ' أبو عامر أمير الأندلس في عهد هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بالله والغالب عليه في الحكم ' أصله من الجزيرة الخضراء ' تميز بذكاء ' ونباهة ' ودهاء للوصول والتفرد بالسلطة ' دامت فترة توليه الحجابة خمسًا وعشرين سنة ' وهو كذلك أديب وشاعر. ابن الأبار ' الحلة السيرة ' ص 153 وما بعدها .
- 3- ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله محمد) ' البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ' تحقيق ومراجعة : ليفي بروفنسال و ج . س كولان ' دار الثقافة ' بيروت ' ج 2 ' ص 392 . المقرئ التلمساني ' المصدر السابق ' ج 1 ' ص 181 .
- 4- صاعد الأندلسي ' المصدر السابق ' ص ص 66-67 . فتحى دياب الشافعي ' المرجع السابق ص 137 .
- 5- المقرئ التلمساني ' نفسه . خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص ص 198 - 199 . عبد البديع عبد العزيز عمر الخولي ' الفكر التربوي في الأندلس 403 - 478 هـ ' دار الفكر العربي ' ط 2 ' 1985 ' ص 43 .
- 6- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص ص 198 - 199 .
- 7- خربت على إثر هذه الفتنة مدينة الزاهرة التي بناها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر سنة 368هـ/978م . ابن عذارى المراكشي المصدر السابق ' ج 3 ' ص 55 ' 94 . عبد الحليم عويس ' التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ' دار الصحوة

على أرجاء الأندلس وسقطت العاصمة قرطبة في أيدي المخربين واللصوص ' بدأت عمليات السلب والنهب ' فقد اقتحم البربر قصر الخلافة ' ونهبت مكتبة الحكم وسرقت الكتب حتى أنه وجد بعضها عند العامة في مدن أندلسية أخرى ' ولم يقتصر النهب من طرف البربر فقط ' بل شمل بعض الأجناس الأخرى من الأندلسيين وحتى الأجانب من أوروبا الغربية الذين نقلوا نفائس المخطوطات الأندلسية ونوادير الكتب إلى بلدانهم ¹.

ولم تكن مكتبة الحكم الوحيدة التي تعرضت لعمليات النهب والسرقة ' بل كذلك مكتبة الزهراوي عمر بن عبيد الله الذهلي (ت 454/1062م) ² الذي حاول أن يهرب بمكتبته والتي حمل منها ما استطاع في ثمانية أحمال لإخراجها ونقلها من بيته بالبربر الغربي من العاصمة قرطبة إلى مكان آخر أكثر أمناً ' إلا أنه لم يستطع تحقيق ذلك إذ سلبها منه البربر ³.

ولكن بعد مرور هذه الفترة العصبية التي عرفتها الأندلس وبالأخص العاصمة قرطبة والتي أدت إلى هجرة الكثير من الأسر القرطبية والعلماء والطلاب إلى المدن الأخرى ' والتي أصبحت فيما بعد عواصم لممالك الطوائف ' و أنشأ هؤلاء العلماء مراكز تربوية جديدة ' ونشروا من جديد هواية جمع الكتب ' وتنافس الملوك في جلب العلماء إلى ممالكهم ' وانتشرت حرية الفكر والتأليف وضعفت سلطة الفقهاء ' ولم يُعرف في تلك الفترة أي حركة تقيد العلم والفكر واقتناء الكتب باستثناء ما ذكره خوليان ريبيرا أن اشبيلية هي الحاضرة الوحيدة التي عرفت آنذاك حملة تفتيش على الحوانيت والأسواق بحثاً عن الكتب المشبوهة لإحراقها علناً أمام الملأ ' حيث كان يُحتفل بهذا لكنه لم يحدد تاريخ هذه الحادثة بالضبط فيما ذكر أنها كانت في عصر ملوك الطوائف وفي اشبيلية فقط ⁴.

3 - إحراق مكتبة الفقيه ابن حزم الظاهري (ت 456/1063م) ⁵:

لم نجد تاريخاً في ثنايا المصادر والمراجع يحدد بدقة تاريخ هذا الحدث إلا بعض الترجيحات إذ يرى الأستاذ محمد الأمين بلغيث نقلاً عن نواز ابن الحاج الشهيد بأن إحراق كتب الفقيه ابن حزم حدثت بعد الفتنة البربرية بقرطبة أي في أواخر أيام سقوط الخلافة ويقدم نصاً يحدد فيه عصر الحادثة ومن كان السبب في ذلك بقوله :

”... وأحرقت كتب ابن حزم في أيام الخلافة بقرطبة وأحرق سفر من كتب ابن حزم ... بفتيا ابن رزق ' وترك الجلد الذي عليه لم يحرق...“ ⁶ ' بينما يرجح المؤرخ الأندلسي ابن بسام الشنتريني أن الحادثة كانت في أواخر حياة الفقيه ابن حزم لما كان مستقراً في ليلة ⁷ وهو يناهز السبعين من عمره أي ما يوافق سنة 453/1061م أو 454/1062م ' فقد ترك ابن حزم مكتبته في الحاضرة اشبيلية ' وأمر حاكمها الملك المعتضد (433-

¹ القاهرة ط 1 ' 1994 ' ص 17 .

1- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 177 .

2- قرطبي ' يكنى : أبا حفص ' محدث ' جماعاً للكتب . ابن بشكوال ' المصدر السابق ' 2 ' ص 582 وما بعدها .

3- نفسه ' ص 583 . فتحي ذياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص 142 .

4- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 199 - 200 .

5- فقيه ظاهري قرطبي ' يكنى : أبا محمد ' اشتهر بالذكاء ' وسرعة في الحفظ ' والكرم ' والتدين متواضعاً ' زاهداً في تولي المناصب رغم أنه نشأ في بيت جاه وسلطة ' وُصف بأنه أجمع أهل الأندلس علماً وأوسعهم معرفة خاصة في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار وعلم الأديان ' اجتمع له من مؤلفاته نحو أربعمئة مجلد ' تحتوي على ثمانين ألف ورقة ' وهو زيادة على ذلك عالم بالحديث وفقهه . ابن بشكوال ' المصدر السابق ' ج 2 ' ص 605-606 .

6- محمد الأمين بلغيث ' المرجع السابق ' ص 166 .

7- مدينة قديمة تقع بغرب الأندلس ' تعرف بالحمراء ' بينها وبين بحر المحيط ستة أميال ' تشتهر بكثرة الزيتون والشجر ومختلف أنواع الثمار . الحميري (محمد بن عبد المنعم) ' المصدر السابق ' ص 507 - 508 .

1041-1068/461م) بحرقها ربما بتأليب من بعض الفقهاء المناوئين للفقهاء ابن حزم¹، ويوافق هذا الطرح المؤرخ حسان محمد حسان الذي قال بأنه حدث في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي².

وابن حزم علي بن أحمد هو ذلك العالم والفقهاء الظاهري مؤسس علم الأديان المقارن من خلال كتابه الفصل بين الملك والأهواء والنحل³ والذي مقتنه الفقهاء فتألبوا ضده وأشاروا بالحكم عليه وتحذيرهم منه ومن مذهبه الظاهري⁴ فظلوا يلاحقونه بذلك أينما حل فقد طاف بالأندلس وحواضرها من قرطبة إلى شاطبة إلى ميورقة والمرية ثم اشبيلية حتى انتهى به المطاف في الأخير بمدينة لبلة والتي بها توفي⁵ وأثناء تنقله بين الحواضر الأندلسية فارا من بطش الفقهاء وكيدهم بلغه نبأ إحراق كتبه في اشبيلية فأنشد أبيات شعرية هذا مطلعها :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدي
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن في قبوري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والأفعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما دون الله من ستر³
(البحر الطويل)

4 - إحراق كتب العلوم العقلية :

شملت ظاهرة الإحراق كذلك تلك الكتب التي رآها بعض الفقهاء تتعارض مع المعتقد السني كالتي تتناول الفلسفة والفلك وعلم التنجيم⁶ وهذا خوفاً من مدى وقوة تأثير الكتب في نشر بعض الأفكار⁷ ومن العلماء الذين ابتلوا بحرق كتبهم في هذا الفيلسوف ابن مسرة الجبلي (ت319هـ/931م)⁴ الذي أدخل مذهباً فلسفياً يقول بحرية الاختيار ويتناقض مع الاتجاه القدري السني⁵.

5 - إحراق وتلف الكتب نتيجة ظروف طبيعية قاهرة :

أدت بعض الظروف الطبيعية الخارجة عن إرادة الإنسان كالجوائح مثلاً بتلف وحرق أجزاء معتبرة من بعض المكتبات المعروفة⁸ ومثال ذلك ما حدث للفقهاء النحوي عبد الرحمن بن موسى (عاش في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري/الثامن والتاسع للميلاد)⁶ وهو عائد إلى الأندلس من المشرق⁹ إذ حدث عطب

- 1- ابن بسام الشنتريني 'المصدر السابق' ق1م'1 ص142.
- 2- حسان محمد حسان 'ابن حزم الأندلسي: عصره' منهجه فكره التربوي 'دار الفكر العربي' القاهرة '1964' ص ص 23 '58.
- 3- ابن بسام الشنتريني 'المصدر السابق' ق1م'1 ص142. المقري التلمساني 'المصدر السابق' ج2 ص242 ج4 ص31.
- 4- هو محمد بن عبد الله بن مسرة بن بحيح 'قرطبي' يكنى: أبا عبد الله 'اتهم بالزندقة' فخرج إلى المشرق 'والتقى في رحلته بأهل الجدل والاعتزال' ثم رجع إلى الأندلس 'وأصبح له أتباع في علم الكلام. ابن الفريسي 'المصدر السابق' ق2 ص ص 39 - 40. أنخل جنثالث بالنثيا 'المرجع السابق' ص327.
- 5- خوليان ريبيرا 'المرجع السابق' ص 198. عبد البديع الخولي 'المرجع السابق' ص 43.
- 6- يكنى: أبا موسى 'من أهل استجة' له رحلة إلى المشرق في عهد عبد الرحمن بن معاوية الداخل حيث لقي الإمام مالك بن أنس كان فصيحاً متمكناً في الإعراب حافظاً للفقهاء والتفسير والقراءات 'تولى قضاء استجة في عهد عبد الرحمن بن الحكم الأوسط ابن الفريسي 'المصدر السابق' ج1 ص ص 439 - 440.

بقاربه قرب شاطئ تدمير (إحدى نقاط شواطئ الأندلس الشرقية الجنوبية) فضاعت كتبه ' ولما حلّ بمدينته استجّة توافد عليه الناس لتنهئته بقدمه ' وتعزيتته بفقدانه لكتبه ' فقال لهم : " ذهب الخرج ' وبقي الدرج (أي ما في صدره) " ¹ .

و حدثت واقعة مماثلة لما سبق مع المولى أفلح (ت 995/385م) ² أحد موالى الخليفة عبد الرحمن الناصر ' والذي ضاعت كتبه في البحر وهو في طريق العودة إلى الأندلس ³ .

ومن الذين أمتحنوا كذلك ابن ميمون أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموي (ت 1009/400م) ⁴ إذ بعد أن نشب الحريق بأسواق طليطلة احترق بيته ' لكن الغريب أن الغرفة التي كانت توجد فيها كتبه لم تحترق وربما هذه إحدى كرامات العلماء ' إذ تزامن هذا الحريق وهو موجود في إحدى الرباطات وقد كان بيته مقصدا للناس ' وعرف عن ابن ميمون أنه كان جماعا للكتب من كل فن ' وكتبه جلها خطها بيده وتميزت بأنها مضبوطة ومصححة ' لهذا اشتهرت كتبها هو وصاحبه إبراهيم بن محمد بأنها من أصح الكتب بطليطلة ⁵ .

كما توجد عوامل أخرى تسببت في فقدان رصيد هام من بعض المكتبات ' ومن هذه العوامل مثلا : كثرة التنقل والرحلات للعلماء ومعهم كتبهم ' مما يؤثر سلبا على هيئة الكتاب فقد أدت بعض الفتن والحروب سواء بين الأندلسيين فيما بينهم كالتي جرت في عصر ملوك الطوائف ' أو بين الأندلسيين والملوك الأسبان ببعض العلماء إلى التنقل إما بين الحواضر الأندلسية الأكثر أمنا واستقرارا ' أو الهجرة إلى المشرق ' وقد نقل هؤلاء العلماء كتبهم معهم ' ومن بينهم مثلا العلامة عطية بن سعيد بن عبد الله (ت 408 أو 409/1017 أو 1018م) الذي طاف بالشرق وجمع منه كتباً كثيرة حملها معه على جمال عدة إلى مختلف الأمصار التي زارها ' مما يؤدي إلى إتلاف بعض الكتب لكثرة التنقل والترحال ⁶ .

وقد رحل بعض العلماء الأندلسيين إلى العدو المغربي نتيجة للظروف السياسية السالفة الذكر فحملوا معهم مكتباتهم الخاصة ' واشتهرت بعض المدن المغربية بهم ومنها مكتبة "أسرة ملجوم" ' والتي يعود أصلها من شرق الأندلس ' وكانت تحتوي هذه المكتبة على مصنّفات جليّة القيمة لدرجة أن وصفها المؤرخ فتحي دياب الشافعي بأنها لم يكن لأحد من أهل العصر مثلها ⁷ .

6 - مصادرة بعض المكتبات والاستيلاء عليها :

وجه آخر من وجوه المحن التي عانت منها بعض المكتبات الرائدة وأصحابها يتمثل في السلب والمصادرة إذ بلغ حب بني ذي النون أصحاب طليطلة للكتاب إلى درجة الاستيلاء على بعض المكتبات الخاصة المشهورة آنذاك ' وهو ما حدث مع مكتبة أحد الأندلسيين المعروف بالروشي الذي يعد من أعظم هواة جمع الكتب في مدينة طليطلة ⁸ .

1- نفسه ' ج1 ' ص 439 . خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 195 .

2- قرطبي ' يكنى أبا يحيى ' له رحلة إلى المشرق ' سمع فيها بمكة المكرمة ومصر . ابن الفرضي ' المصدر نفسه ' ج1 ' ص 159 .

3- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 195 .

4- من أهل طليطلة ' يكنى : أبا جعفر ' ولد سنة 964/353م ' كانت الرحلة إليه بالأندلس ' له رواية الحديث حافظاً لرأي الإمام مالك . ابن بشكوال ' المصدر السابق ' ج1 ' ص 51 وما بعدها .

5- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 184 .

6- الضبي ' المصدر السابق ' ج2 ' ص 266 وما بعدها . ابن بشكوال ' المصدر السابق ' ج2 ' ص 651م ' فتحي دياب الشافعي ' المرجع السابق ' ص 141 .

7- نفسه ' ص ص 141 - 142 .

8- خوليان ريبيرا ' المرجع السابق ' ص 183 .

وساهمت الحروب الدائرة بين المسلمين والنصارى في الثغور بوقوع بعض المكتبات في أيدي النصارى بعد سقوط المدائن الأندلسية¹ حيث استولى هؤلاء على مكتبة محمد بن سليمان بن سيدراي الكلابي الضخمة بعد هزيمة المسلمين في وقعة كتنده 514/1120م² وقد قرّ صاحبها من مقاطعة أرغون³ إلى مدينة بلنسية التي كانت ملاذاً آمناً للوراقين المهاجرين من بطش النصارى في تلك الممالك⁴.

كما استولى ألفونسو المقاتل⁵ على مكتبات عدة منها مكتبة أسرة بني هود أصحاب سرقسطة⁶ إذ نهبوا وسلبوا مكتبة المقتدر بالله أحمد بن سليمان ثاني ملوك بني هود (475-438/1082-1046م) الذي لم يكن رجل سياسة فقط بل كان عالماً في الفلسفة والحساب والفلك⁷ وكذلك الشأن للملك المستعين بالله أحمد بن يوسف (503-478/1109-1081م)⁸ إذ تحتفل مكتبته ببعض الكتب العلمية القيمة ومنها كتاب يونس بن اسحاق ابن بكارش⁹ في الطب الذي أهده صاحبه إلى المستعين بالله وسماه باسمه "المستعيني"¹⁰ ويذكر خوليان ريبيرا أن بعض المكتبات الأوروبية ما زالت تحتفظ إلى اليوم ببعض النسخ من هذا المخطوط¹¹.

كما سبق ذكره فإنه على الرغم من المحن التي عانى منها الكتاب والمكتبات بصفة عامة في الأندلس على اختلاف أشكال هذه المحن¹² إلا أنه لم تقل من حب الأندلسيين للكتب والتعلق والاهتمام بها تأليفاً وقراءة وجمعاً¹³ وهو ما يعبر عن مدى الوعي الثقافي والحضاري الذي وصل إليه عامة وعلماء المجتمع الأندلسي.

خاتمة:

ويُستخلص مما سبق ذكره حول أهمية الكتاب ودوره في الحركة العلمية والتعليمية عدة نتائج أهمها:

01 - يُعد الكتاب المورد الأساسي في الدرس التعليمي¹⁴ لما يحتويه من معارف ومعلومات¹⁵ والتي يستغلها المعلم في درسه¹⁶ والشيخ في حلقاته العلمية¹⁷ حيث تختلف طريقة الاستفادة منه إما بالإسماع والإملاء أو التلقين من خلال الاستعانة بالكتاب¹⁸ أو الاكتفاء بالقراءة هذا فيما يخص مراحل التعليم الأولى والثانية وهي التي تشمل من دخول الصبي الكتاتيب إلى مرحلة البلوغ والمراهقة¹⁹ أما في المرحلة العليا من التعليم وهي مرحلة التخصص²⁰ يرتقي بها الطالب الأندلسي إلى التأليف والانتاج²¹ ولقد كان للأندلسيين باع طويل ومساهمة في هذا الجانب²² زيادة على اهتمامهم بجلب الكتب المشرقية إلى الأندلس بعد رحلاتهم العلمية²³ ولم يكتفوا بذلك بل تعدّوا إلى ترجمة المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية²⁴ كما هو الحال مع الكتب الهندية واليونانية²⁵.

1- وقعة كتنده التي انهزم فيها المسلمون على يد النصارى واستشهد فيها الكثير من الفقهاء والعلماء. المقري

التلمساني، المصدر السابق ج2، ص 251. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، ط5، 1997، ص 429.

2- أرغون: إحدى ممالك النصارى وهو اسم لبلاد على حدود الأندلس تقع في شمال برشلونة. نفسه، ج1، ص 125 عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 27. رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، بيروت، (د.ت)، ص 313 وما بعدها.

3- خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 185.

4- ألفونسو المقاتل أو المحارب وهو ألفونسو السادس، تسميه المصادر الإسلامية: غرسيه بن شانجه، ملك قشتالة (القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد). ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص 51 وما بعدها. المقري التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص 251. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج2، ق1، ط2، 1990، ص ص 88-89.

5- وهو طبيب يهودي، يُعد من كبار علماء الطب في الأندلس وصناعة الأدوية. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 501.

6- نفسه. ويسميه أنخل جنثالث بالنثيا ابن بكارش. أنخل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص 469..

7- بينما يسميه ريبيرا ابن بكارش. خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 185.

خاصة منها التي تختص بعلوم الطب والحساب والفلك .
02 - ونظراً لأهمية الكتاب وقيّمته ' فقد اهتم الأندلسيون به نسخاً ' وتجليداً ' وتجارة ' مما أدى الى ظهور مكتبات رائدة ' اشتهرت مع مرّ الزمن باحتوائها نفائس المصنفات والنادر من المؤلفات ' فكانت مكتبة الحكم المستنصر والتي عرفت فيما بعد بمكتبة قرطبة ' واذا كانت هذا المكتبة مثالا لعناية الحكام بالكتاب فكيف يكون الحال مع العلماء وطلبة العلم ؟ اذ كما سبق الإشارة اليه فان هذا الشغف بلغ حتى العامة ' واشتهر اهل الاندلس بانهم يفتخرون باقتناء وجمع الكتب ' ويعتبرون ذلك من مظاهر الترف ' والجاه ' والرياسة خاصة لدى الميسورين منهم والأعيان .

03 - كما اهتم الأندلسيون بمهنة الوراق ' التي تعد العامل الرئيسي في ازدهار نشاط حركة انتاج وتاليف الكتب ورواجه ' فقد احتفلت الأندلس - ان لم نبالغ - بجيوش من الوراقين والنساخ ' واشتهرت مدن بصناعة الورق كشاطبة وبلنسية واشبيلية ومالقة وطليطلة ' حتى أن بعض العلماء كانوا ينسخون لأنفسهم بأنفسهم .

04 - أدى اهتمام الأندلسيون بالكتاب الى ظهور أنواع مختلفة من المكتبات وكثرتها ومنها مكتبات المساجد ' المكتبات الخاصة (كالعلماء مثلا) ' مكتبات القصور (الأمراء ' والخلفاء والملوك) .

05 - على الرغم من هذه العناية والاهتمام إلا ان التاريخ سجل بعض الحوادث المؤسفة على بعض الكتب النفيسة والمكتبات العريقة ' والتي بسببها إما أُلقت الكتب أو سُرقَتْ ونُهبت أو أحرقت وأصبحت في حكم المفقود ' وهذا لأسباب وأحداث سياسية ' أو لعوامل طبيعية قاهرة ' أو غير ذلك ' فقد أحرقت أجزاء من مكتبة الحكم المستنصر وأحرقت معظم مكتبة الفقيه ابن حزم الظاهري أو كلها ' ونفس الشيء حدث مع مكتبة الفيلسوف ابن مسرة الجبلي وصودرت مكتبة أسرة بني هود في سرقسطة من طرف نصارى الشمال ' وضاعت بعض الكتب في البحار بسبب بعض الأهوال الطبيعية القاهرة والتي صادفت بعض الأندلسيين أثناء عودتهم من رحلاتهم العلمية بالمشرق الى الأندلس ... الخ.

• قائمة المصادر والمراجع :

1/المصادر :

1 - 1/كتب التاريخ العام :

- ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد)' المقدمة 'تحقيق:علي عبد الواحد وافي' الهيئة المصرية العامة للكتاب'2006 .

- عبد الواحد المراكشي (محيي الدين أبي محمد بن علي)' المعجب في تلخيص أخبار المغرب مطبعة بربل ' ليدن 1881 .

- ابن عذارى المراكشي(أبو عبد الله محمد)'البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب'تحقيق ومراجعة:ليفي بروفنسال و ج . س

كولان ' دارالثقافة ' بيروت.

- قسطنطين السابع بورفيروجينيوس ' إدارة الأبراطورية البيزنطية'عرض وتحليل وتعليق: محمود سعيد عمران ' دار النهضة العربية

بيروت ' 1980.

- المقري التلمساني (أحمد بن محمد)' نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن

الخطيب تحقيق:

يوسف الشيخ محمد البقاعي ' دار الفكر ' بيروت ' ط 1 ' 1998.

1 - 2 / كتب الطبقات والتراجم :

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ' الحلة السيرة ' وضع حواشيه وعلق عليه : علي إبراهيم محمود ' دار الكتب

العلمية بيروت ' ط 1 ' 2008 .

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم) ' عيون الأنباء في طبقات الأطباء ' شرح وتحقيق: نزار رضا ' منشورات دار مكتبة

الحياة ' بيروت .

- ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن علي) ' الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ' تحقيق : إحسان عباس ' دار الثقافة ' بيروت ' 1997 .

- ابن بشكوال (أبو القاسم بن خلف) ' الصلة ' تحقيق : إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب اللبناني ' القاهرة

بيروت ' ج 1 ' ط 1 ' 1989 .

- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) ' جمهرة أنساب العرب ' تحقيق: وتعليق: عبد السلام محمد هارون ' دار المعارف القاهرة ' ط 5

1982 .

- الحميدي (أبو عبد الله محمد) ' جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ' تحقيق: إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب

اللبناني ' القاهرة بيروت ' ط 2 ' ج 1 ' 1989 .

- صاعد الأندلسي (أبو القاسم بن أحمد) ' طبقات الأمم ' نشر وتحقيق: لويس شيخو ' المطبعة الكاثوليكية ' بيروت ' 1912 .

- الضبي (أحمد بن حيان) ' بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ' تحقيق: إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب

اللبناني ' القاهرة ' بيروت ' ج 1 ' ط 1 ' 1989 .

- ابن الفرزي (عبد الله بن محمد) ' تاريخ علماء الأندلس ' تحقيق: إبراهيم الأبياري ' دار الكتاب المصري ' دار الكتاب اللبناني ' القاهرة

بيروت ' ط 2 ' ج 2 ' 1989 .

- عياض القاضي (موسى بن عياض) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ' وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية .

1 - 3 / كتب الأدب واللغة العربية :

- ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) ' المغرب في حلي المغرب ' تحقيق : شوقي ضيف دار المعارف ط4 ' القاهرة 1993 .

- ابن منظور الإفريقي (جمال الدين محمد بن مكرم) ' لسان العرب ' دار صادر ' بيروت .

1- 4 / كتب الجغرافيا :

- الحميري (محمد بن عبد المنعم) ' الروض المعطار في خبر الأقطار ' تحقيق : إحسان عباس ' مكتبة لبنان ' بيروت ط2 ' 1984 .

- الشريف الإدريسي (محمد بن عبد العزيز) ' المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق

مطبعة بريك ' ليدن ' 1863 .

- ياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله) ' معجم البلدان ' دار صادر ' بيروت ' 1977 .

2/ المراجع :

2 - 1 / العربية :

- الزركلي خير الدين ' الأعلام ' دار العلم للملايين ' بيروت ط16 ' 2005 .

- ابن زين العابدين رستم محمد ' الكتب الشرقية والأصول النادرة في الأندلس ' دار ابن حزم ' بيروت ط1 ' 2009 .

- الشافعي دياب حامد ' الكتب والمكتبات في الأندلس ' دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ' القاهرة ط1 ' 1998 .

- ابن عبد الله البشري سعد ' الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (422-4316هـ/928-1030م) ' معهد البحوث العلمية

وإحياء التراث الإسلامي ' جامعة أم القرى ' مكة المكرمة ' 1997 .

- عبد الله عنان محمد ' دولة الإسلام في الأندلس ' مكتبة الخانجي ' القاهرة ط2 ' 1990 .

- عبد العزيز عمر الخولي عبد البديع ' الفكر التربوي في الأندلس 403 - 478 هـ ' دار الفكر العربي ط2 ' 1985 .

- علي الحجي عبد الرحمن ' التاريخ الأندلسي ' دار القلم ' دمشق ط5 ' 1997 .

- - ' الكتب و المكتبات في الأندلس ' هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ' المجمع الثقافي ' ط 1 .
- علي العكش إبراهيم ' التربية والتعليم في الأندلس ' دار عمار ' دار الفيحاء ' أربد ' عمان ' ط 1 ' 1986 .
- عويس عبد الحليم ' التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ' دار الصحوة ' القاهرة ط 1 ' 1994 .
- فريد وجدي محمد ' دائرة معارف القرن العشرين ' دار المعرفة ' بيروت ' ط 3 ' 1971 .
- ماهر حمادة محمد ' المكتبات في الإسلام ' نشأتها ' وتطورها ' ومصائرهما ' مؤسسة الرسالة ' بيروت ' ط 7 ' 1996 .
- محمد حسان حسان ' ابن حزم الأندلسي: عصره ' منهجه فكره التربوي ' دار الفكر العربي ' القاهرة ' 1964 .
- 2 - 2/المُعَرَّبَة :
- جنثالث بالنتيا أنخل ' تاريخ الفكر الأندلسي ' ترجمة : حسين مؤنس ' مكتبة الثقافة الدينية .
- ربييرا خوليان ' التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ' ترجمة: الطاهر أحمد مكي ' دار المعارف ' القاهرة ط 2 ' 1994 .
- هونكه زيغريد ' شمس العرب تسطع على الغرب وأثرها على الحضارة العربية في أوروبا ' نقله عن الألمانية : فاروق بيضون ' كمال
- دسوقي ' راجعه ووضع حواشيه : مارون عيسى الخوري ' دار الآفاق الجديدة ' بيروت ' ط 6 ' 1981 .
- 3 - الرسائل الجامعية والأطروحات :
- بلغيث محمد الأمين ' الحياة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين ' أطروحة دكتوراه « قسم التاريخ ' جامعة الجزائر ' الموسم الجامعي: 2002-2003 .
- بولعراس خميسي ' الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف (400 - 479 هـ/1009-1086م) «مذكرة ماجستير» ' قسم التاريخ ' جامعة الحاج لخضر ' باتنة ' الموسم الجامعي: 2006-2007 .